يوم في بيت المقدس

أحمد الشقيري

فيما يلي فصل من مذكرات الاستاذ احمد الشقيري التي ستصدر قريبا في بيروت بعنوان « ما أشبه الليلة بالبارحة » .

عرفت بيت المقدس في طفولتي وصباي ، من بعيد ، فلم يشرفني الله ان تكون مسقط رأسي ، وحرمت ان أحبو على ترابها الطهور ، وان ارتع في حاراتها وساحاتها ، وان اتفيأ ظلال أسوارها وابراجها . وما أسعد الذين ولدوا في اكنانها ، فقد قدر لهم ان يترعرعوا في مهد التاريخ وان يكونوا من سدنة معالمها الخالدة .

ولقد عرفت بيت المقدس ،وانا في عكا ، وكانت يومذاك تبعد عني مسيرة ثلاثة ايام على ظهور الجياد ، ولكنها مع ذلك كانت أقرب الي من حبل الوريد ، أقرب من اذني الى سمعي ، فقد كان اسمها يتردد من حولي في البيت ، وفي الجامع ، وفي المدرسة ، وفي كل مكان .

في البيت كانت حلقة العلماء في بيتنا لا تفتر عن ذكر بيت المقدس عند كل مناسبة دينية ، وكان الحديث عن « بركاتها وفضل الصلاة في المسجد الاقصى » يطغي على كل حديث .

وفي المسجد كانت خطب الجمعة ، لمناسبة الاسراء والمعراج ، تشير الى فضائل بيت المقدس ، وينهي الخطيب كلامه وهو يرتل بصوت خاشع الاحاديث النبوية عن بيت المقدس ومنها : «من زار بيت المقدس محتسبا اعطاه الله اجر الف شهيد» . «ومن زار بيت المقدس محتسبا حرم الله لحمه وجسده على النار » . « ومن صلى في بيت المقدس غفرت ذنوبه كلها » .

وفي المدرسة كان استاذنا يتحدث بافاضة عن بيت المقدس ، وعن اسوارها وابراجها وابوابها ، وعن تاريخها ابتداء بالفتح العمري ، الى عهد الامويين والعباسيين ، وحروب الافرنج مع صلاح الدين ، الى عهد العثمانيين فالاحتلال البريطاني .

ولكننا في المدرسة لم نكن نعرف بيت المقدس بهذا الاسم ، فلقد شاع هذا الاسم فيما بعد ، فقد كان الاسم الرائج « القدس الشريف » ، ولذلك حكاية جرت بيننا وبين معلم الجغرافيا .

في ذلك الوقت ، وهو على التحديد في عام ١٩١٩ ، كان معلمنا يدرسنا الجغرافيا من غير كتاب ولا خريطة ، فلم تكن الكتب المدرسية قد طبعت ، ولم تكن الخرائط قد ظهرت، فالاحتلال البريطاني بعد العهد العثماني لم يكن قد اعد شيئا من برامج التعليم .

وكان معلمنا يدرسنا من « عقله » ، ويتحدث عن جغرافية فلسطين وسهولها وجبالها ومدنها مستعينا من حين الى حين برسم خارطة على اللوح ، يبين فيها مناطق فلسطين الطبيعية . ويتعمد ان يرسم عكا وحيفا والخليج بينهما باتقان وروية .